شرح كتاب المطوّل

في البلاغة

سعد الدين مسعود التفتازاني

د. محمود توقيق

المحاضرة الثانية

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وَمن اهتدى بهديه إلى يوم الدِّين.

كنت قد قلتُ -قبل ذلك- كَيْما تتحقَّق الفائدة المرجوة من قراءة هذا الكتاب أن نكون على ذُكْرٍ من المسائل والقواعد والشواهد والأمثلة التي سنعرض لها؛ فلا يكون همنا الأكبر أن نتكلَّم في القواعد، وفي المسائل من حيث هي، فهي التي يشترك فيها كل كتب البلاغة؛ وإنما فيما صُنِّع له (المطوَّل).

فهناك أمورٌ تشترك فيها كل الأسفار في العِلم، وهي الأشياء الأساسية، تجدها في الكتاب الكبير، وفي الكتاب الصغير، وغير ذلك.

لكن بعض الكتب لا تُقرأ لذلك، الذي يريد أن يتعلَّم قواعد البلاغة وأمثلتها وشواهدها من كتابٍ كمثل كتاب المطوَّل نقول له: أنت أشبه برجلٍ يريد أن يشتري علبة كبريت فدخل مول العرب! يريد أن يشتري الكبريت من مول تجاري كبير!

فكذلك مَنْ جاء ليتعلَّم البلاغة، ويقرأ كتاب (المطوَّل)؛ نقول له: لا، ليست وظيفة كتاب المطوَّل لهذا!

أهمية الشروح والحواشي والتقارير:

كنت أقول للدكتور وائل أن الشـروح والحواشـي والتقارير، هذه كتبٌ ليسـت لخدمة العلم ولا لخدمة طلَّاب العلم! وإنما كتبٌ جاءت لتحيل قارئها من كونه متعلِّمًا إلى أن يصير مُعَلِّمًا، من كونه متلقِّيًا إلى كونه صانعًا، إلى كونه عالِمًا.

ولذلك هي تهتم كثيرًا بالنظر في حوار العلماء بعضـهم مع البعض، فالتقرير والحاشية والشرح إنما هي ثلاثة علماء يتحاورون مع صاحب المتن! فكأننا موجودون في مناظرةٍ علميةٍ! هذا الكتاب مناظرةٌ علميةٌ، لكن ليس على شاشة التلفاز، إنما على صفحات الكتاب.

ولذلك ستجد الخطيب السعد يناقش الخطيب في كل شيءٍ، يناقشه في القضية نفسها، يناقشه في طريقة تعبيره، يقول له: لِمَ قلتَ كذا؟ لِمَ عدَّيْتَ الفعل كذا، وهكذا، فهو حوارٌ مجتمعيٌّ لأنه يستحضر كل العلوم التي تخدم هذا العلم، وهو يناقشه فيها.

وسـنرى الآن كيف أنه يناقشـه في عبارته، ليس في المسـألة العلمية نفسـها! لماذا؟ لأن الأصـل أنك تعبِّر في العِلم بما يتواءم مع طبيعة المسـائل التي تدرسـها؛ بمعنى أنني أكتب في الكتاب بلاغةً ينبغي أن يكون أسـلوبي منبثق من القضـايا التي أتناولها، فأنا أدرس أسـاليب همها الأكبر هي المعاني الزائدة على أصـل المعنى، وبالتالي لا بد أن يكون تعبيري أيضًـا، وأنا أكتب

الكتاب لا يكتفي بإفادة أصل المعنى، وإنما لا بد وأن أستعمل تراكيب وكلماتٍ وكذا لأحقِّق لك معانٍ زائدةً على الأصل.

بخلاف عالم النحو، فأنا وأنا أكتب كتاب نحوٍ لا أستعمل فيه الأساليب البلاغية، لكن حينما أكتب في كتاب البلاغة لا بد أن يكون أسلوبي ليس أسلوبًا علميًّا صِرفًا؛ وإنما أسلوبٌ ومزيجٌ ما بين الأسلوب العلمي والأسلوب الأدبي.

حتى في بحوث طلاب الماجستير والدكتوراه نقول له: ليكن أسلوبك في رسالتك في الماجستير -في البلاغة- مختلفةٌ عن أخيك الذي يدرس في علم النحو ماجستير في البلاغة، ماجستير في النحو، ماجستير في الفقه، أنت لا بد وأن تكون بلاغيًّا وبليغًا في الوقت نفسه؛ وبالتالي أستطيع أن أعرف مدى فهمك!

يعني وأنا أناقش الطالب أستطيع أن أعرف إذا كان الطالب يفهم المسألة أو لا يفهمها، أو مجرد ناقلٍ للمسألة، وذلك من خلال أدائه، لو رأيتُه يوظِّف المسألة في أدائه؛ إذًا هو فَهِم المسألة، ولا يستطيع توظيفها إلَّا إذا فهم المسألة، وبالتالي بدون أن أسأله أقول له: اكتب في معنى كذا، بدون أن أسأله، فلو رأيته يوظِّف التشبيهات والاستعارات والمجازات في أدائه عن المطلوب؛ أقول له: أنت فهمتَ البلاغة من خلال الأداء.

وهذا ما ستلاحظونه على السعد التفتازاني، فنحن قلنا: قبل أن نتكلَّم هناك مقدمة، خطبتان:

- خطبة للســـعد الشـــريف، الســـعد التفتازاني: وهذه خطبة كتاب (المطوَّل).

- خطبة أخرى للخطيب القزويني.

بين الخطبتين فروقٌ، نحن لا نستطيع أن ندرسها الآن، لماذا؟ لأن قضايا العلوم الثلاثة غير مستحضرةٍ؛ فإن مد الله في العمر، أو جاء أحدٌ يستكمل الدرس، فبعد أن يفرغ من شـــرح علم البديع، يرجع ثانية إلى كلام الخطيب في خطبته في أول الكتاب، ويَدْرُس مســـائل البلاغة تطبيقيًّا في لغة الخطيب وكأنها قصـــيدةٌ، ثم في لغة الســـعد وكأنها قصـــيدةٌ، ثم يوازن بين الأداءين، فيكون معك نصان أدبيان، نصان بليغان، هذان النَّصان هما مناط التطبيق.

ولذلك تريد أن تعرف كيف؟ اقرأ هذه المقدمة في كتاب تقرير الإمبابي على المختصر، ستجده قد كتب فيها حوالي ستين صفحة في أربع صفحات كتبهم السعد!

ماذا تقرأ؟ أقرأ تطبيقات علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع في كلام الســـعد، يحاكِم الســـعد على كل كلمةٍ، على كل حرفٍ، على اســـتعماله لحروف الجر، على كذا، على كذا، فأنت هنا لا تقرأ بلاغةً؛ أنت تقرأ دراساتٍ تطبيقيةً لعلم البلاغة في شرح الشيخ الإمبابي على مختصر السعد.

- نقول للطلاب: هذه الشروح، هذه الحواشي، هذه التقارير لا يمكنك أن تفيد منها إلَّا إذا كنتَ مستحضرًا هذا.

☼ **طيب، نحن هنا ماذا نفعل؟**

- نقول: نفرض أننا قد قرأنا كتب البلاغة للمراغي، قرأنا الكتب الصغرى التي تتكلَّم في القضايا، فنقول: نحن سنقرأ مثلًا المقدمة؛ التي هي الفصاحة والبلاغة، وعيوب الفصاحة، وعيوب البلاغة، على الأقل -قبل أن تأتي إلى هنا- تكون قد راجعتها مرة ومرتين وثلاثة؛ لأني لا أريد أن أشتغل كثيرًا بمفهوم تنافر الحروف، وتنافر الكلمات، والغرابة؛ لأن هذه الأشياء تكون أنت مستوعبًا لها.

الاسم الأصلي لكتاب (المطوَّل):

لا بد أن تعرف أن السعد لم يسمِّ كتابه المطوَّل! اسمه (الشرح الكبير)، ثم شرح (الشرح الصغير)، وحتى يفرِّق الناس بين هذا وهذا سمَّوا هذا المطوَّل، وهذا..

لكن انتبه لهذا! قد أسأل الطالب:

☼ **هل تسمية هذا الكتاب -المطوَّل- تسميةٌ دقيقةٌ أم غير دقيقةٍ؟**

- هذا السؤال لكي أعرف ما إذا كان الطالب يدرك الفرق بين التطويل والإطناب؟ بدون أن أسأله: ما التطويل كمصطلحٍ بلاغيٍّ؟ والإطناب كمصطلحٍ بلاغيٍّ؟ هناك فرقٌ! أقول له: ما رأيك في تسمية هذا الكتاب بالمطوَّل؟ أتسميتهم دقيقةٌ؟

الرجل لم يسمِّ كتابه المطوَّل، فالذين سمَّوه هم الذين لم ينتبهوا جيدًا! فالتطويل معناه: أن تضيف في بيانك كلامًا لا يُحتاج إليه، وفي الوقت نفسه لا يفسد المعنى، فهذا هو معنى التطويل.

إذًا سمات التطويل:

السمة الأولى: أن فيه كلامًا زائدًا على المراد.

السمة الثانية: أن هذه الزيادة لا تفسِد المعنى؛ لأنها لو أفسدت المعنى صارت حشوًا.

أما الإطناب:

هو أن تزيد على المراد زيادةً تفيد فائدةً أخرى.

☼ طيب، هل هذا الكتاب فيه زياداتٌ على المراد لا تفيد؟

- لو قلتَ: نعم، إذًا أنت تطعن في عقل السعد! وتطعن في بيانه! لأن تسميته بالمطوَّل تسميةٌ غير ملائمةٍ، وغير مطابقةٍ لطبيعة الكتاب! نعم الكتاب فيه بسطٌ؛ لكن هذا البسط من ورائه فوائدٌ؛ وما دام من ورائه فوائدٌ فليس بحسنٍ أن يُسمَّى المطوَّل.

هنا نقول له: هناك معابةٌ في التسمية، لكن المعابة لا ترجع إلى السعد، ترجع إلى مَنْ سمَّى الكتاب (المطوَّل)، فلو بقي على (الشرح الكبير) لكان أفضل!

كلمةٌ واحدةٌ يمكننا أن نختبرك فيها وننتهي من قضية أتعرف الفرق بين التطويل والإطناب أو لا تعرف؟ هي مجرد أن تعلِّق على عنوان الكتاب.

عنوان الكتاب مفتاح خزائنه:

دائمًا عناوين الكتب مفاتيح خزائنها! إخواننا أصحاب النقد الحديث يسمونها: عتبة النص، لكل بيتٍ عتبةٌ في المدخل، فأنا أدخل إلى الكتاب من خلال عنوانه!

ولذلك تجد الدِّقة البالغة عندما سمَّى عبد القاهر كتابه (دلائل الإعجاز)! والدقة البالغة حين يُسمِّي كتابه الأول (أسرار البلاغة)!

هنا (دلائل الإعجاز) ولم يقل: أي إعجازٍ؟ مع أن من الإعجاز إعجازٌ بلاغيٌّ، وإعجازٌ فقهيٌّ، وإعجازٌ فلسفيٌّ، الإعجاز كثيرٌ، هو يقول: الإعجاز، أي إعجازٍ؟ وما معنى دلائل؟ الكلام كثيرٌ جدًّا؛ لِمَ لَمْ يقل: أسرار الإعجاز؟ فكل هذه الأشياء وأنت تدقق في العناوين، الشيخ يقول: (مفتاح العلوم).

☼ لِم سمَّيته مفتاحًا؟ ولماذا العلوم وليس مفتاح العلم؟

- **الخوارزمي**: سمَّى كتابه (مفاتيح العلوم)، مفاتيح، لماذا؟ لأنه لم يضع نظريةً واحدةً.

- **السكَّاكي**: وضع لعلوم اللغة العربية مفتاحًا واحدًا؛ أقامه على نظريةٍ واحدةٍ في كتابه (مفتاح العلوم).

شيخنا أو صديقنا الدكتور عبده زايد، أقام رسالة الدكتوراه على كشف نظرية المبدأ الأوحد الذي أقام عليه السكَّاكي كتابه (مفتاح العلوم).

وجاء بعد ذلك شيخنا الأجل، الشيخ سعد مسرور كتب في قضية ما أقام السكَّاكي عليه كتابه من النظريةِ الواحدةِ، سواء كان يتكلَّم في النحو، أو في الصرف، أو في علوم البلاغة، أو يتكلَّم في العَروض، أو يتكلَّم في الاستدلال، كلها قائمةٌ على أصلٍ واحدٍ! فكرةٍ واحدةٍ! مبدأٍ واحدٍ!

إذًا هذه عقليةٌ توحيديةٌ، عقليةٌ تركيبيةٌ، عقليةٌ تُجمِّع ولا تُفرِّق، ترُكِّب ولا تُجزِّئ، والأمَّة تحتاج إلى ذلك!

فعقلية العالم يجب أن تكون عقليةً تركيبيةً، وليست عقليةً تجزيئيةً، فالتجزيء يُعدُّ مرحلةً وصولًا إلى التركيب، ابنك لما تأتي له بالميكانو، تتركه يفكِّك، لماذا؟ لكي يعيد التركيب، فلو لم تعلِّمه كيف يركِّب من المفكَّكات شيئًا آخر غير الذي كان؛ فأنت لم تربِه! فدائمًا لا بد أن تكون عقليتك عقليةٌ تركيبيةٌ توحيديةٌ.

إذا تحقَّق هذا في الأمَّة مثلًا، فستصير أمةً متحدةً، أمَّةً واحدةً، وانظر لكلمة أمَّةٍ تجد معناها أن الناس يؤمُّون شيئًا واحدًا، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾[آل عمران:104]. يعني كونوا أمَّةً واحدةً، لكم هدفٌ واحدٌ، لكم ضوابطٌ وأخلاقياتٌ واحدةٌ، ثم انظر كيف قال: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ﴾[آل عمران:104]. (مِن) هذه اسمها (مِن التجريدية)، فهي ليست للتبعيض.

☼ ما معنى (مِن التجريدية)؟

– لما تقول: (محمدٌ أسـدٌ)، أنا جعلتُ محمدًا أسـدًا، فهل جعلته أسـدًا وزيادة؟ لا، وليس زيادةً، محمد هو الأسد.

لكن لما أقول لك: (لك من محمدٍ أســـدٌ)، إذًا محمد فيه أســـدٌ، وفيه أكثر، فأنا جردتُ منه أسدًا، وبقيت فيه بقية الأشياء.

والله يقول لنـا: أنـا لا أريـدكم أن تكونوا أمَّـةً، أريـدكم أن تكونوا أمَّـةً وزيادةً! فلا نحن صرنا أمَّة! ولا صِرنا زيادةً! أرأيتم المعصية التي نحن عليها؟! قد ندخل النار بسببها!

مثلك لا يدخل النار بســـبب أنه لا يصـــلِّي، فأنت تصـــلِّي وتصـــوم وتتصـــدَّق؛ لكن قد تدخل النار بشـــيءٍ لا علاقة له بهذه العبادات، فكل العبادات المشروعة إنما هي أدواتٌ إلى هدفٍ أكبر!

فالشـــعائر التي عندنا هذه تهيئك لأمرٍ آخر أكبر من هذا! الذي هو: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت:45]. أي أن تكون مذكور الله! ذِكر الله يعني أن يذكرك الله! والله لا يذكرك إذا كنتَ عبدًا صالحًا؛ وإنما يذكرك لَأن تكون عبدًا صالحًا مُصلحًا، مجرد أن تكون صالحًا في نفسك هذا لا يجعلك مذكور ربك، لن تكون مذكور ربك إلَّا إذا كنتَ صالحًا في نفسك، مُصلحًا لغيرك، أن تُخرج نفســـك من الظلمات إلى النور، وتخرج آخرين من الظلمات إلى النور.

فلا بد لنا عندما نقرأ هذه الكتب ندرك لِمَ نقرأ؟ نقرأ لنتحوَّل إلى أناسٍ لديهم مهارة حوار العلماء، لنرى ما الذي نتفق فيه؟ وما الذي نختلف فيه؟ ولِمَ اختلفنا؟ وما مزايا هذا الاختلاف؟ لأنه لا يوجد اختلافٌ بين الأمَّة إلَّا من ورائه عوائد فوائد، لا يوجد اختلافٌ بين العلماء ويتحقق منه ضررٌ؛ إنما لا بد وأن يكون هناك مزية، البحث عن الفائدة التي من وراء اختلاف العالم مع العالم الآخر، ليس اختلافًا ذاتيًّا، وإنما هو اختلاف بحثٍ عن منفعةٍ.

السعد لا يخالف الخطيب لأنه لا يعجبه، أو لأن الخطيب عربي والسعد أعجمي، المسألة أكبر من هذا! هؤلاء علماء، وإنما هو يناقشه ويختلف معه في الرؤية وفي المدخل إلى المسألة من أجل أن يستحصد فائدةً لم يكن الخطيب قد استحصدها، فهو اختلافٌ من أجل التكامل، وليس اختلافًا من أجل التباين.

أرجو أن يكون الكلام واضحًا حين نتعامل مع هؤلاء العلماء، هؤلاء كبارٌ! وليسو صعاليك مثلنا!

الدلالة اللغوية والدلالة الاجتماعية لكلمة (صعلوك):

لا تغضب من كلمة صعلوك، لأن كلمة صعلوك أنا أستعملها بدلالتها اللغوية، وليست بدلالتها الاجتماعية، فالصعلوك بالدلالة الاجتماعية عيبٌ، لكن نحن نستعمل كلمة صعلوك بمعنى فقير.

لكن صعلوك بالدلالة الاجتماعية يعني (بلطجي)، فأنا لا أستخدمها بدلالتها الاجتماعية، أنا أستخدم الكلمة بدلالتها اللغوية.

ومثلًا لا تغضب لو قلتُ لك: هذا كلامٌ فارغٌ الذي تقوله، لا تغضب، أقصد أنه فارغًا مما أريد، هو فيه أشياءٌ كثيرةٌ جيدةٌ لكني لا أريدها.

سنبدأ من أول شيءٍ، سنبدأ من أول قوله: [**رتَّب المختصر**]، سأقرأ الفقرة، ثم بعد ذلك سنبقى فيها كثيرًا.

(المتن)

[**رتَّب**] أي: رتَّب الخطيب [**المختصر على مقدِّمةٍ**] أو: [**مقدَّمةٍ وثلاثة فنونٍ؛ لأن المذكور فيها إما أن يكون من قبيل المقاصد في هذا الفن أو لا، الثاني: المقدِّمة والأول إن كان الغرض منه الاحتراز عن الخطأ في تأدية المراد، فهو الفن الأول؛ وإلَّا فإن كان الغرض منه الاحتراز عن التعقيد المعنوي، فهو الفن الثاني؛ وإلَّا فهو ما يُعرَف به وجوه التحسين؛ وهو الفن الثالث، وعليه مَنْعٌ ظاهرٌ يُدْفَع بالاستقراء**].

(الشرح)

أول ما تجد في كلام السعد أنه عدَّى الفعل [**رتَّب**] بـ[**على**]، والفعل [**رتَّب**] لا يُعدَّى بشيءٍ من خارجه، فمثلًا تقول: (رتَّبْتُ الأثاث)، هو من الأفعال التي تُعَدَّى بنفسها.

لكن الشيخ هنا عدَّاه بماذا؟ بـ[على]، وهذا السـعد! إذًا المسألة ليست خطأً! لا بد من ورائها شيءٌ! هذا اسمه اقتصاد لغوي.

☼ ما معنى اقتصاد لغوي؟

- يعني أن تفيد معانِيًا كثيرةً بكلماتٍ قليلةٍ، قال: أراد أن يدلك بكلمة [رتَّب] على شيئين:

الأول: على اجتماع أمورٍ على جهة الترتيب، طيب، أفدت (اجتماع) هذه من أين؟ من [على]، وعلى جهة الترتيب من كلمة: [رتَّب].

☼ ما معنى هذا؟

- يقول: هذا اسمه التضـمين، يعني أُضَـمِّن فعلًا معنى فعلٍ آخر، وأدل على الفعل الآخر بحرفٍ يتعدَّى به، فيكون الفعل المذكور لا يتعدَّى بهذا الحرف، وأنا أريد هذا الفعل وفعلًا آخر، أريد معنى الترتيب، وأريد معنى الاشتمال والاجتماع.

فمعنى [رتَّب] أي: رتَّب المختصـر ترتيبًا مشـتملًا على؛ وبالتالي نقول لطالب العلم: لا تقل لي [على] هذه متعلقةٌ بـ[رتَّب].

فلو قلتُ لك: الجار والمجرور متعلِّقٌ بمن؟ لو قلتَ لي: متعلِّقٌ بـ[رتَّب]، أعرف أنك ما زلتَ في طَور العلم الأول! لماذا؟ لأن [على] هذه ليست متعلقةً بالفعل [رتَّب]، مع طلاب المرحلة المتوسطة أمررها، لكن مع طالب في الدراسات العليا، لو قال لي: [على] جار ومجرور ومتعلِّقٌ بـ[رتَّب]، لو

في مسابقة سأقول له: افتح الباب وأغلقه من الخارج! انتهت المسابقة، لماذا؟ لأن [على] لا تتعلَّق بـ[رتَّب]، متعـــلِّقةٌ بشيءٍ محذوفٍ، رتَّبه ترتيبًا مشتملًا على، فـ[على] متعلقةٌ بكلمة (مشتمِل).

تخيَّل لو أنا سُـــقت العبارة هكذا: (ورتَّب الخطيب المختصـــر ترتيبًا مشـــتملًا على)، فالعبارة اتســـعت! يقول لك: لماذا توسِّـــعها وقارئ هذا الكتاب يمكن أن يُدرِك مرادك باللحظ؟ فلِم تجعله يدرك مرادك باللفظ؟! فيكون تطويلًا.

فمثلًا عندما نقول: الولد الذي سيقرأ هذا الكتاب، هذا يدرك الأشياء بلحظِه، وما يُدْرَك لحظًا لا يُذْكَر لفظًا؛ لذلك العربية قائمةٌ هكذا: ما أُدْرِك بالجنان لا يُنطق باللسان، ومن هنا هي لغة إيجازٍ واقتصادٍ.

☼ إذا قلتَ لي: لِمَ كل هذا؟

- أقول لك: انتبه! عالم الكلمة في عالم البيان مثلك في عالم الإنسان، يعني الذي تتعامل به الكلمة في عالم اللســـان طبِّقه على نفســـك، فالعربي يقتصد في كلامه.

فالذي ينفع أن تدركه بدون أن أنطقه لن أنطقه، لماذا؟ توفيرًا أولًا من الوقت في النطق، ومن الوقت في السمع، ومن الجُهد الذي أبذله في النطق، انظر قَدْر ما يحقِّق من الاقتصـــاد؟! يقول لك: لأن هناك أمورٌ أجل تنفقها من عمرك وجهدك فيما هو أكبر من ذلك، خُذ هذا الذي في اللغة، وطبِّقه

في حياتك، فاقتصِد في نفقاتك، اقتصد في حركتك، اقتصد في كل شيءٍ؛ لأن لغتك قائمةٌ على الاقتصاد.

إذًا أنا أستفيد من الدرس اللغوي في الواقع الحياتي، فلو أنا طبَّقته في الحياة فإن كثيرًا من مشاكلنا -النفسية على الأقل- ستُحل، نحن الآن أحوج ما نكون إلى ثقافة الاقتصاد! اقتصد في حركتك، في وقتك، في مأكلك، مشربك.

☼ من أين نأخذ هذا الكلام؟

- من اللغة.

☼ لماذا؟

- لأن اللغة قائمةٌ على الإيجاز.

ولذلك سيدنا صحار العبدي، وهو أحد الصحابة البدو، جاء في زيارة سيدنا معاوية حين كان أميرًا للمؤمنين، جاء ليزوره، فمعاوية يعرف أنه رجلٌ من قبيلة تتسم بالفصاحة، فلم يكلِّمه في الجِمَال والإبل، كَلَّمه في مزية قبيلته.

☼ لماذا كلَّمه في مزية قبيلته؟

- لما يأتيك ضيفٌ، وأنت تعرف أن الضيف متميزٌ مثلًا في الكرة، سيغلبك في الكرة، فكلِّمه فيما يغلبك فيه، لماذا؟ لكي تُشعره بالأنس.

لكن أنا صاحب بلاغة، وجاءني رجلٌ من قريتنا، هل أكلِّمه في السعد؟! سيشعر أنه المسكين جاهلٌ، إذًا أنا أهنته أم لم أهنه؟! أهنته، لكن أدعوه ليتكلَّم في الزراعة مثلًا، فأكون أنا أقل منه.

دائمًا اجعل ضيفك يشعر بأنه صاحب قدرٍ عندك! وأن عنده أشياء ليست عندك، فكلِّمه فيما يُتقِن، لا تكلِّمه فيما أنت تتقن، وإلَّا سيخرج من عندك وهو ناقمٌ على نفسه.

فسيدنا معاوية لما جاءه صحار العبدي، وهو يعرف أنه من قبيلةٍ ذات لَسَنٍ، قال له: ما البلاغة التي فيكم؟

انظر! لم يكلِّمه عن أي شيءٍ يتعلَّق بالبادية أو الإبل، قال: ما البلاغة التي فيكم؟ أنتم مشهورون بالبلاغة:

– ما البلاغة التي لديكم؟

– قال: يا أمير المؤمنين، ذلك شيءٌ يجيش في صدورنا.

انظر! كيف العبارة! يجيش، التجيش هذا، الجيش، تعرف الجيش؟ عددٌ كبيرٌ جدًّا، ومنظمٌ، يقول: هذه معانٍ كثيرةٌ تتزاحم في صدورنا، ولكنها منظمةٌ، تجيش أي تزاحمت وتزاحمت، ثم نظَّمتها، فلما نظمتها فتحت لها باب الانطلاق، قال صحار:

– ذلك شيءٌ يجيش في صدورنا فيتقاذف على ألسنتنا.

مجرد أن تزدحم في صدري أفتح لها الباب فأنطلق، معنى هذا، يقول له: نحن أناس لا نتكلَّم إلَّا بعد تفكيرٍ، عندنا عقول، فلا أنطق إلَّا بعد أن يستوي المعنى في داخلي، الكلام عندنا لا يولد قيصريًّا؛ فالمرأة تلد قيصريًّا لأن الولد لم يكتمل نموه، فيلزم إخراجه رغمًا عنه.

فكذلك هو يقول: المعنى نضج، فإذا تم خلقه فتحت له الباب فينطلق، انظر كلمة (**تتقاذف على ألسنتنا**)! ثم قال له:

– وما البلاغة؟

– قال صحار: البلاغة الإيجاز.

البلاغة الإيجاز، أن تعبِّر عن هذا المتزاحم في صدرك بكلمتين فحسب، أما مَنْ اتخذ الكلام صنعةً! لا نجعل عملنا كلامًا، لا نجعل عباداتنا كلامًا، الأرض لا تعمُر بالكلام، الأرض تعمُر بالأفعال، هذا كله أخذناه من كلام هذا الصحابي البدوي، فالعربية لغة الإيجاز.

ولذلك إخواننا الذين يجيدون لغاتٍ أجنبيةً، هات أي تركيب عربي، أي جملة عربية وترجمها، ستجد الجملة المكونة من أربع كلماتٍ ستترجمها في سبع أو ثمان كلمات! وهذا أقصى ما يمكن أن يُترجم فيه، لماذا؟ لأن العرب أصلًا أمرهم قائمٌ على الإيجاز، هم لا يحبون الحواشي، الأشياء الزائدة التي يمكن أن يُستغنى عنها هم لا يحبونها، فلتكن عربيًّا في كلامك، وفي فعلك، وفي حياتك.

فهنا عندنا لما قال: [**رتَّب المختصر**] مع أن الكتاب اسمه (التلخيص)، لكن استعمل كلمة المختصر، وهنا عليك كطالب علمٍ أن تقول:

☼ **أهناك فرقٌ بين المختصر والتلخيص والتخليص؟ هذه مصطلحاتٌ كلها، متى أسمِّي كتابي (مختصر)؟ ومتى أسمِّي كتابي (تلخيص)؟ ومتى أسمِّي كتابي (تخليص)؟**

- لو استعملتَ واحدةً مكان واحدةٍ ظلمتَ؛ لأن الظلم هو أن تضع الشيء في غير موضعه، فأنت لما تستعمل كلمة (تلخيص) مكان كلمة (تخليص) نقول لك: انتبه! أنت ظلمتَ الكلمة، وظُلم الكلمة كظلم الإنسان! ليس فقط أن تكون ظالِمًا بين العباد، لا، واللهِ الكلام أيضًا له حقٌ عليك، فلا تظلمه! تضع الكلمة في موضعها.

أولًا: (**الاختصار**): لا يكون إلَّا بعد أن يكون ثمة كلامٌ فيه تطويلٌ أو فيه إطناب، هذا مرحلةٌ أولى أم مرحلةٌ ثانيةٌ؟ مرحلة ثانية؛ إذًا لا يُنشأ الكلام من البداية مختصرًا، وإنما يُنشأ أولًا ببسطةٍ من القول، ثم تعود فتنقيه مما يمكن الاستغناء عنه، فما اسمه في هذه الحالة؟ اختصار.

ثانيًا: (**الإيجاز**): لو أنا أنشأتُ الكلام من البداية على حالٍ أوجز، فهذا اسمه إيجازٌ؛ إذًا الإيجاز معناه: أن تأتي معانيه كالكُثر في عباراتٍ قليلةٍ من البداية، لا أن تُنشئها في الأول طويلة ثم تنقحها؛ فهذا لا يُسمَّى إيجاز، وإنما من البداية حين تنطق تنطق بما لا يمكن الاستغناء عنه، وهذا من أصعب ما يكون! لا يجيده إلَّا الفحول!

ولذلك أحد الأدباء الكبار كتب رســـالةً مطولةً لصـــاحبه، فقال له: "**أعتذر إليك لضـيق الوقت**" أنت تكتب سـاعة، ما هذا الوقت؟! معك ساعة كتبت فيها رسالةً!

لماذا؟ لأن الإيجاز يحتاج إلى سـاعتين، لكي نحيل المعنى الذي يريده إلى عبارةٍ في فقرةٍ واحدةٍ يحتاج ســاعتين! لكن الذي أريد أن أجعله ثلاث صفحاتٍ يحتاج ساعةً واحدةً.

فدائمًا الإفاضـــة في الكلام لا تحتاج وقتًا، لكن الذي يحتاج إلى وقتٍ هو الإيجاز؛ لأنه يحتاج وقتًا ليس أثناء الكلام، يحتاج وقتًا في أن نجيشـــه في صدورنا مثل سيدنا صحار العبدي، تُرَتِّب المعانى.

ولذلك عبد القاهر يقول لك: "**البلاغة كأن ترتِّب المعاني في صدرك حتى إذا تمَّت دعها تختار كلِمها**".

لذلك لما نسأل طالب:

☼ هل عبد القاهر من مدرسة الطبع أم من مدرسة الصنعة؟

- لو الطالب غير منتبه سيقول: من مدرسة الطبع؛ لأن عبد القاهر لا يحب التصنُّع.

لكن سـنقول له: أخطأتَ، هو من أهل التصـنُّع في إحداث المعنى، في إنشاءِ المعنى، عليك أن تتصنَّع وأنت تفكر.

لكن في الطبع حين تتكلَّم، فأنت رجلٌ تميل إلى الطبع عندما تتكلَّم؛ لأنك لا تبذل جُهدًا وأنت تتكلَّم، كل جهدك تبذله وأنت صامت تفكر.

وقد كان هذا شأن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، كان أكثر ما يكون وهو لا يتكلَّم، يفكر، ثم يتكلَّم كلماتٍ، يعني أذكر أنه قيست أطول خُطبة جمعةٍ، أو خُطبة عيدين، قالوا: لم تتعدَّ ربع ساعةٍ -خمس عشرة دقيقة- بالطريقة التي يتكلَّم بها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

فمهمٌّ جدًّا أن نعرف كلمة [**المختصر**].

☼ طيب، هل الخطيب اختصر (المفتاح) أم لخَّصه؟

- نقول: لخصه، وللإيضاح نشرح الفرق بين التخليص والتلخيص:

التخليص: إيجازٌ، إذا قُدِّمت (الخاء) فمعناه أنك قلَّلتَ الكلمة، حذفت أشياءً كثيرةً.

إنما التلخيص: معناه شرحته.

☼ لماذا لم يقل تلخيص، وهو قد سمَّى كتابه (التلخيص)؟

- قال: ومَن قال لك أنه أراد أن يخلِّص، أو يوجِز، هو ما أراد إيجازه؛ بدليل أنه شرح كلامه، وأضاف إليه، واعترض عليه، وأتى بنقولٍ من عبد القاهر، إذًا فهو لم يكن يوجِز، بل كان يشرح.

وبالتالي نقول لطلاب العلم دائمًا: كتاب (تلخيص المفتاح) هو شـــرحٌ لكتـاب (المفتـاح)، وليس إيجازًا لكتـاب (المفتـاح)، ليس اختصـــارًا لـه، هو حذف أشياءَ، وأضاف أشياءَ، وفصَّل مُجملًا، وقوَّم خطأً، إلى آخر هذا.

فصــنعته في كتاب (التلخيص) صــنعةٌ زائدةٌ على ما يُعرف، ولذلك لو كان يريد مجرد الإيجاز، وتحويل الثلاثين صـفحة إلى عشـر صـفحات لسـمَّاه تخليص المفتاح، وليس (تلخيص المفتاح).

فهمنا الفرق بين لخِّص الكلام يعني اشـرحه، وخلِّص الكلام، الخلاصـة، يعني: أخرج الزبدة، هـذا مـا ينبغي لـك من أن تكون المصــــطلحات عندك واضحةً جدًّا.

فهنا يقول: [**رتَّب المختصــر**] لأنه اختصــر ما يريده، ليس اختصــر (المفتاح)، اختصـر ما يريده، من هنا سمَّى كتابه (التلخيص) من جهةٍ، وسمَّاه —نفس الخطيب- أيضًا، كتاب التلخيص هذا، سمَّاه (مختصر)، وهو تلخيصٌ من حيث هو شرحٌ، وهو مختصرٌ من حيث اختصر مراده من الكتاب فقط.

ولذلك يبدأ يســـألك: هل الكتاب مختصـــر أم تلخيص؟ هو الأول يسألك:

☼ ما الفرق بين الاختصار وبين التلخيص؟

- تقول له: التلخيص معناه أني أشــرح، والرجل كان يشــرح الكتاب، والتلخيص هو لخَّص مراده، يعني اختصــر مراده، يعني كان يملكه أن يأتي به

أوســـع من ذلك، فلما قدَّم الكتاب، الذي هو (التلخيص) لطلاب العلم وجدهم غير قادرين على فهمه، فماذا يفعل؟ عمل (الإيضاح).

إذًا شرح (المفتاح) مرتين:

- مرة بكتابه (التلخيص).
- ومرة بكتابه (الإيضاح).

وكُتبت الصيرورة لكتابه (التلخيص)، وكُتبت أيضًا لكتابه (الإيضاح).

وقد صُنع ذلك -في زمانه وقبل زمانه- في (المصباح)، ابن الناظم كتب كتابه (المصباح)، لكن لو قرأتَ الدرس في كتاب المصباح -مطبوعٌ موجود في مكتبة الآداب- وقرأتَ الدرس في كتاب (التلخيص) ســتجد الفرق بين الرجلين، فرقٌ كبيرٌ جدًّا! يرجع إلى التكوين النفسي والعقلي للرجلين.

قاعدة مهمة لطالب العلم:

لذلك دائمًا نقول لطلاب العلم: قبل أن تقرأ أي كتابٍ عليك أن تعرف التكوين النفسي والتكوين العقلي للشيخ الذي يكتب الكتاب؛ لأنه سيكون له أثرٌ في الكتاب نفسه!

فابن الناظم رجل (لا يعجبه العجب، ولا الصـــيام في رجب)! ولذلك كان كثير النقدات لأبيه -الذي هو صاحب الألفية- فالذين يقرأون شرح ابن الناظم للألفية يعرفون أن الرجل كان بينه وبين أبيه ما صـــنع الحداد، علميًّا وليس أخلاقيًّا.

الخطيب مختلفٌ، رجلٌ هينٌ رضـي النَّفْس، وكان محبوبًا من الناس، حتى من العامة! لأنه كان يسـعى في مصـالحهم؛ لأنه كان ذا قدرٍ، فكان محبوبًا، وكان رجلًا نفسه رضية، فظهر هذا في بيانه، فكُتبت له الصيرورة.

وأنتم تلاحظون ضـيق النَّفْس عند ابن تيمية ولغته، وانبسـاطة النَّفْس عند ابن القيم، ابن القيم لا يكاد يأتي بجديدٍ من حيث العلم، قلَّما يأتي بجديدٍ في تحرير المسائل، هو صدًى لشيخه لكن بطريقةٍ مختلفةٍ.

الاختلاف جاء من قِبَل التكوين النَّفْسـي، هذا الرجل طوال حياته في صـراعٍ نفسـيٍّ مع الأشـياء، فهو منقبضٌ، ولا يطيقه إلَّا الذين ينحتون من الجبال قصورًا! يحبون أن يشتغلوا في الشغل الصعب!

ابن القيم حبُّوب جدًّا! اقرأ كتابه (روضـة المحبين) تقول: ليس هذا ابن القيم! هذا رجلٌ آخر غير ما نعرف عن هذا الرجل السُّني!

إذًا [**رتَّب المختصـر على**]: هنا يكلِّمني على محتوى الكتاب، معناه أنه يعلِّمني شـيئًا؛ أن أول شـيءٍ تعرفه من الكتاب أن تعرف محتويات الكتاب، على ماذا يحتوي؟

هو يقول: الكتاب مكونٌ من [**مقدِّمةٍ وثلاثة فنونٍ**]: فأعطاني رؤيةً كليةً لكتاب الخطيب القزويني.

وانتبه! انظر لدقته! سـيرجع على لماذا هو نكَّر كلمة [**مقدِّمةٍ**]؟ وليس هـذا فقط، التنوين الـذي فيهـا تنوين مـاذا؟ تنوين تعظيمٍ؟ أم تنوين تقليـلٍ وتحقيرٍ؟ لا يترك شيئًا! لا يمر مر اللئام على الأشياء، وإنما يمر مر الكرام!

قلتُ: [**مقدِّمةٍ**]:

- هل هي بكسر (الدال) أم بفتحها؟

- طيب، (التاء) الموجودة هذه (تاء) ماذا؟ (تاء تأنيثٍ)؟ أم (تاء نقلٍ) من شيءٍ إلى شيءٍ؟

ناس مشـغولة بكل شـيءٍ! لا يترك شـيئًا يمر! لأن هذا علمٌ، أقل ما يستفيد منه دقة الانتباه لكل شيءٍ.

فهنـا أتعلم ممن يقول لي: لماذا نكَّر؟ ثم يقول لي: التنوين الموجود هـذا تنوين مـاذا؟ وهـذه (التـاء) تـاء مـاذا؟ يقول لـك: أفصِّـل في الكلام لكي أكتسـب هذه المهارة، لما أكتسـبها في اللغة سـأنقل هذه المهارة إلى واقع الحياة، ولو نقلتها إلى الواقع في الحياة، إذًا أنا سأتقي كثيرًا من الضرر، انظر كيف نوظِّف تعلُّم اللغة؟! إلى حركة الحياة.

فتعاملنا مع اللغة على أنها مجرد أداة تواصـلٍ، لكن لو اللغة مجرد أداة تواصـل ما كان سـيدنا رسـول الله -صـلَّى اللهُ عليه وسـلَّم- يقول: «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِم إِلَّا حَصَائِدَ أَلْسِنَتِهِمْ**».

المسألة ليست مجرد كلام! ثاني أكسيد الكربون! فالكلام ثاني أكسيد الكربون، ثاني أكسيد الكربون ليس مجرد تخلُّص من شيءٍ ضارٍّ! لا، إنه يحمل أشياءَ إما أن تُدخِلك الفردوس، وإما أن يكون في استقبالك أبي لهب! فاختر لنفسك!

يقول: [**على مقدِّمةٍ**]: لو قلت: مقدِّمة؛ إذًا معناها أن ما هو آتٍ -في هذه المقدِّمة- من قضايا ومسائل لها وظيفةٌ:

☼ ما وظيفة قضايا ومسائل هذه المقدمة؟

- وظيفتها أنها تقدِّم لك ما ينفعك في دراسة العلوم الثلاثة.

يعني يقول لي: انتبه لهذه المقدِّمة؛ لأنك إن أحسنتَ فِقهها كان في حسن فقهها عونًا لك أن تفقه ما بعده؛ أي أقدِّم لك المعلومة، أقدِّم لك ما يعينك على كذا وكذا.

لذلك في هذه المقدِّمة سيتكلَّم في مسألتين فقط، الفصاحة والبلاغة، فإذا لم تكن تعرف ما معنى فصاحة؟ وما معنى بلاغة؟ لن تستطيع البتة أن تدرك ما سيأتيك في علم المعاني، وما سيأتيك في علم البيان، وما سيأتيك في علم..، لأن كثيرًا مما هو متعلِّقٌ بعلم البديع مردُّه إلى الفصاحة، فإذا لم تكن تفهم جيدًا ما الذي يحقِّق لك فصاحة نُطقك؟ فبالتالي لما تقرأ الجناس لن تفهم ما وراء الجناس!

لن تفهم لماذا يقيم الله كلامه أحيانًا على الجناس، هناك فرقٌ كبيرٌ بين أن يقول: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:55]. فإذا لم يكن للجناس هنا قيمة تربوية تثقيفية ما كان الله ليقيم كلامه عليه، كان من الممكن أن يقول: ويوم تقوم القيامة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة، ضاع الجناس!

فبالتالي -في هذه الحالة- لو أنا غير مدرك تمامًا القيمة الصوتية للجناس، وما وراء القيمة الصوتية للجناس، إذًا أنا غير مدركٍ لهذا الكلام!

لما الرسول -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يقول: «الخَيْلُ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ». جناس، هل هو يحلِّي الأصوات في عقلك؟ لا واللهِ، هو يريدك أن تقيم علاقةً، فكما هناك علاقة صوتية، انتبه! علاقة صوتية بين كلمة (خيل)، وكلمة (خير)، فهناك علاقةٌ وظيفيةٌ بين الخيل وبين الخير، وأن عليك أن تنقل هذا الكائن من كونه أداة تخايل وتفاخر إلى أداة خيرٍ.

فالرسول -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يريد أن ينقلني من كون هذا الكائن الجميل، وظِّفه فيما فيه الخير، معناها يقول: لما ترى شيئًا ظاهره أنه لا ينفع، بل يضر، تقول لي: لا، فيها من الجانب الآخر ما هو خير، فهذه الخيل ما خُلقت لتتفاخر بها، ولا ليكون لك فيها جمال، وإنما لك فيها خير.

ثم انظر! يقول: «وَلَكَ خَيْرٌ مُتَكَرِّرٌ». لهذا أتى بـ(الراء) في الآخر، و(الراء) حرف تكرير، إذًا لما تعشق الخيل لا تعشقه من أجل أن تقيم مسابقات في الأفراح، اصنعه للجهاد في سبيل الله.

وبالتالي لم يأتِ التوافق الصـوتي بين (خيل) و(خير) لمجرد التنغيم؛ جاء لما وراء ذلك، لو أنت لا تفهم الفصـاحة في هذه المقدِّمة جيدًا فلن تعرف إطلاقًا ما في علم البديع.

وأنا قلتُ في المرة السابقة أن:

- علم البديع هو ذروة علم البلاغة.
- علم البديع أكبر من علم المعاني.
- لا يفقه علم البديع إلَّا مَنْ كان خِرِّيتًا في علم المعاني، وعلم البلاغة.

المسألة غير سهلة! ظاهرها أنها سهلة، لكن توظيفها في استخراج المعاني ليس سهلًا.

ولذلك تلاحظون أن ما يُسـمَّى بالمحسـنات اللفظية والمعنوية كثرت في السور المكية، لأن السياق سياق حديثٍ مع عربٍ خُلَّصٍ! قريش! خلاصة العرب، ولذلك اسمها قريش؛ لأنها قَرَشَت كل سمات العرب فكانت فيها.

☼ أتعرف معنى قَرَش؟

قَرَش يعني جمَع.

انتبه لهذه القاعدة: كل كلمةٍ في العربية فاؤها (قاف)، وعينها (راء)، تفيد معنى الجَمْع، انظر لدقة العرب! هذا لا تجده في لغةٍ أخرى، أن جميع الكلمات التي فاؤها (قاف)، عينها (راء)، وما يثلثهما تدور حول معنى جَمَع.

هات كتاب (مختار الصــــحاح) أو أي كتاب في نفس الغرض، وانظر مادة (القاف)، كتاب (القاف)، ومعه (الراء)، واجمع هذه الكلمات، وانظر فيها ســـتجد فيها المعنى الدفين، وهو معنى جَمَع، مثل: (قرأ – قرُب– قرُم) كل هذا بمعنى جَمَع، وكذلك كلمة (كتَب).

لهذا تفهم معنى أن الله أحيانًا يقول عن القرآن:

﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ**﴾[البقرة:2].

وأحيانًا يقول:

﴿**أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**﴾[البقرة:185].

وما الفرق بين الكتاب وبين القرآن؟ فأنت تحتاج أن تعرف هذا، متى يقول الكتاب؟ ومتى يقول القرآن؟

وكتب أيضًـــا (كاف) و(تاء)، كل كلمةٍ فيها فاؤها (كاف)، وعينها (تاء) تفيد معنى الجَمْع، فما الفرق بينهما؟ هنا جمعٌ وهنا جمعٌ، الفرق بينهما في طريقة الجمع، وما يُجمع به، في (كَتَب) الجامع بين الأشياء من جنسه.

طالب: ....

الشـيخ: أنا أريد أن أجمع أشـياءَ؛ إذًا أجمعها بخيطٍ من جنســه، لو أنا حِكتُ قطعتي الثوب من نفس جنس الخيوط التي منها الثوب، فأنت كتبتَ الصواب.

لا، هي صــوف أو حرير، فخطته بقطنٍ، إذًا ليس (كَتَب)، هنا (قرأ)، إذًا يلزم أن يكون الجامع بين الأشياء أن يكون من جنس المجموع.

فهمنا هذا الكلام، قد يكون صــعب قليلًا، لكن لما تتدرَّب شــيئًا ما ستجدها سهلة عليك، فـ(قرأ) لا، أي جمعٍ بأي طريقةٍ، فهو اسمه ماذا؟

ولذلك (قرأ) أعم من (كَتَب)، (كَتَب) أخص، يلتقيان في شــيءٍ، ويفترقان في شيءٍ، كل مجموعٍ فهو قراءةٌ، وليس كل مجموعٍ كتابةً.

هذا الكلام يلزم أن تعرفه؛ لكي تقف وأنت تقرأ، لأنك ستقرأ في سورة الحِجر، وستقرأ في سورة النمل، مرة يقول في سورة الحجر:

﴿آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾[الحجر:1].

ومرة يقول في سورة النمل:

﴿آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾[النمل:1].

هل ممكن آتي بآية الحِجر وأضــعها في ســورة النمل؟ هناك قدَّم ﴿الْكِتَابِ﴾ وأخَّر ﴿وَقُرْآنٍ﴾، وهنا أخَّر ﴿كِتَابٍ﴾ وقدَّم ﴿الْقُرْآنِ﴾.

فهل آخذها من هنا وأضعها هنا؟ لا، هذا راجعٌ لمضمون السورة، ما الذي هو مقدَّمٌ في الســورة؟ هل من باب (كَتَب)، أم من باب (قرأ)؟ وهنا مَنْ المقدَّم في السورة؟

هذه نســـميها القراءة الاحترافية، كل كلمةٍ في القرآن موزونةٌ، فلا يأتي أحدٌ يأخذ آية النمل، ويضعها في الحجر، لن تستطيع؛ لأننا سنكشفك من مضـمون السـورة! سنقول لك: خطأ! أنت قدّمتَ ما حقه التأخير، وأخَّرتَ ما حقه التقديم!

وأنت تقرأ بهذه الطريقة ستشـعر بنفسـك أم لا؟ تحس أنه يحق لك أن تنتسب إلى آدم أم لا؟ تكون بني آدم؛ لكن من مصطلحنا نحن، مصطلحنا القرآني، وليس مصـــطلح العامة، فقد يقول أحدهم: يا بني آدم! طبعًا هذه شـــتيمة، كلمة يا بني آدم، أليس كذلك؟ لكن عندنا في القرآن، لا، هذا مدحٌ.

ولذلك الله –سبحانه وتعالى– إذا أراد أن يلفتك إلى ما فيك من سـوءٍ يستخدم كلمة (إنسان)، يريد أن يقول لك أن فيك شـيءٌ سـيءٌ أصلحه! يقول سبحانه:

﴿**كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى**﴾[العلق:6].

تتبعها في القرآن تجد كلمة (إنسان) حيثما وُجدت فللفت انتباهك إلى شيءٍ سيءٍ فيك!

قد تقول لي: طيب، في سورة الرحمن يقول تعالى:

﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ**﴾[الرحمن:3].

أقول: لما تقرأ واحد وثلاثين مرة في السورة: ﴿**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾[الرحمن:13]. تعرف لماذا قال: ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ**﴾[الرحمن:3].

أما كلمة (بني آدم) فلا يذكر الله تعالى هذه الكلمة إلَّا في سياق التكريم، أو في سياق ما يدعوك إلى أن تكون مُكرَّمًا، قال تعالى:

﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾[الأعراف:31].

كأنه يقول لك: كن ابن آدم، وآدم نبيٌّ، خلقه الله بيده.

إذًا ليس كل إنسانٍ بني آدم، فكلمة (إنسان) في القرآن مذمَّة، هو مَنْ أَنِس بالنعمة ونسي الْمُنعِم! أَنِس بجماله وفصاحته ونسي مَنْ أعطاه هذه النعم! فهذا إنسانٌ!

ولكن إذا كانت النعمة دائمًا ما تذكِّرك بالْمُنعِم فأنت آدمي، فإن شغلتك عن الْمُنعِم فأنت إنسانٌ.

والقرآن جاء لينقلك من طور الإنسانية إلى طور الآدمية، فالإنسانية في القرآن ذَمٌّ وليست مدحًا.

نعود إلى المتن: [**مقدِّمةٍ**]: أيهما الأصل التنكير أم التعريف في الأسماء؟

طالب: التنكير.

الشيخ: لماذا؟

طالب: للعموم.

الشــيخ: عندنا قاعدةٌ تقول: كل ما احتيج إلى شــيءٍ من خارجه فهو فرعٌ عمَّا لا يحتاج، مَنْ الذي يحتاج إلى علامةٍ التذكير أم التأنيث؟

طالب: التأنيث.

الشيخ: التأنيث، لا شيء عندنا -في اللغة- اسمه علامة تذكير، والمفرد والمثنى والجمع، أيهما أصـل وأيهما فرع؟ نقول: الإفراد هو الأصـل؛ لأنه لا يحتاج إلى علامةٍ، بينما التثنية والجمع يحتاجان إلى علامةٍ.

فكل ما احتاج إلى شيءٍ من خارجه فهو فرعٌ عمَّا لا يحتاج إلى خارجه، إذًا هذه اللغة لغةٌ منطقيةٌ! فهل يُتوقَّع -بهذا المنطق- أن يكون الذي صنعها إنسانٌ؟ لكن لما تقرأ قول الله تعالى:

﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾[البقرة:31].

﴿**وَعَلَّمَ**﴾: ليس معناها نقَّله، لم يُجلســه ويقول له: هذا كذا، وهذا كذا، لا، وإلَّا فهناك أشياءُ لم تكن في زمان سيدنا آدم!

☼ **إذًا ما معنى: ﴿وَعَلَّمَ﴾؟**

- يعني منحه القدرة والْمَلَكة على أن ينظر في الشيء فيتفرَّسه، فيعرف كُنهه، ويعرف حقيقته، فيضـع له السِّمة الدالة على كُنهه وجوهره، والسِّـمة هي الاسم، ولذلك قال: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ**﴾[البقرة:31].

☼ فقد يسألني أحدٌ: هل سيدنا آدم لم يكن يعرف الأفعال؟ ولم يكن يعرف الحروف؟

- أقول: كلمة: ﴿الأَسْمَاءَ﴾ ليس معناها هنا المقابل للأفعال والحروف؛ وإنما معناها السِّمات، علَّمه سِمات الأشياء كلها، ينظر في الحجر فيعرف سِمته كذا، فيضع له اسمه، ينظر في الماء فيعرف له سِمة، وهناك ارتباطٌ بين الاسم والمسمَّى.

فلا تسمِّ ولدك أو بنتك اسمًا لا يليق أن يكون مُسمَّاه حاضرًا فيه، ربنا أكرمك ببنتٍ، سمَّيتها فاتن، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم! إن قصدتَ معنى الصفة في الاسم فيوم القيامة ستعاقَب! لأنك أردتَ أن تكون فتنةً!

ولذلك الحق -سبحانه وتعالى- اختار لرسوله اسمه، قال: محمد، وقال: محمود، هو تعالى مَنْ سمَّاه.

☼ لماذا محمد؟

- لأنه أعظم مَنْ حمده الله، ما حمد الله أحدًا من خلقه كما حمد محمدًا! ولذلك محمد مبالغة في محمود.

☼ طيب، وأحمد؟

- هو أعظم مَنْ حمد ربَّه! لم يَخلُق الله أحدًا أحسن حمد ربِّه كما فعل رسول الله! ولذلك (أحمد) صيغة مبالغة من حامد.

والجميل أن سيدنا عيسى لما بَشَّر به، لم يبشر به باسم (محمد)، وإنما قال: (أحمد)، فقال: سيأتيكم نبيٌّ هو أعلم بحق ربه عليه، فكان أعظم مَنْ حمد ربَّه؛ لأنه حمده عن علمٍ.

وبالتالي لو كان لله ولدٌ لكان محمد هو أحق الناس بأن يكون لله ولدٌ، لا يصلُح عيسى؛ لأن عيسى ليس أحمد، والأصل عندنا أن أحمد الناس للأب ولده، فلو كان عيسى ولدًا لله، لم يكن سمَّاه عيسى، كان سمَّاه أحمد، وبالتالي نعرف لماذا سيدنا عيسى قال:

﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[الصف:6].

أرأيتَ الدقة؟! ممكن أستبدلها وأقول: اسمه محمد؟ وأقول لك: محمد هو أحمد؟ أقول لك: أنك لم تفهم! لو النصارى فهموا فقط لماذا قال عيسى: ﴿أَحْمَدُ﴾[الصف:6]؟ لانتهت المشكلة!

هذا يبيِّن لك قيمة اللغة! فهذا علمٌ! ليس كاللغة الإنجليزية والفرنسية وغيرها، هذا علمٌ دراسته عبادةٌ! تعبُّدٌ!

☼ قال: [مقدِّمةٍ]: ما اسم هذه (التاء)؟

- نقول: (التاء) هذه هي (تاء النقل)، ليست (تاء تأنيثٍ).

لما أسألك: كلمة [مقدِّمةٍ] مذكر أم مؤنث؟

طالب: مذكر على الأصل.

الشـــيخ: لا هي مذكر، ولا مؤنث؛ لأن هذه (التاء) ليســـت (تاء تأنيثٍ)، اسمها (تاء نقلٍ).

☼ ما معنى (تاء نقلٍ)؟

- نقلتها من كونها صفةً إلى كونها اسمًا.

يعني لما أسمِّيك: كاتب، كلمة كاتب في أصــلها ماذا؟ صــفة أم اســم؟ صـفة، لكن لو سمَّيتك بها انتقلت من كونها صـفةً إلى كونها اسمًا، وممكن أن تكون أمِّيًّا، لا تقرأ ولا تكتب!

الوحيد الذي أسماؤه تمثلت فيها صــفاته هو رســول الله صــلَّى الله عليه وســلَّم؛ لأنه اسمه هو صــفته، وقبل ذلك الحق ســبحانه وتعالى، فأسماء الله تعالى تتحقَّق فيها أسماء الذات والصفات.

ولذلك عندنا دائمًا قاعدةٌ تقول: أن كل اســمٍ من أسماء الله تعالى يدل على ذات الله، وعلى صفته المشتقة من اللفظ دلالةً تطبيقيةً مطابقيةً.

إذًا عندنا الدلالات ثلاثة:

(1) **دلالة مطابقية.**

(2) **دلالة تضمُّنية.**

(3) **دلالة التزامية.**

مثلًا كلمة (الرحمن):

- تدل على ذات الله، وعلى صفة الرحمة بالمطابقة.
- وتدل على ذات الله فقط بالتضمُّن.
- وتدل على الرحمانية في التضمُّن.
- وتدل على بقية الصفات بالالتزام.

لأنه لا يكون رحمانًا إلَّا إذا كان عليمًا بمن يرحم، وإلَّا إذا كان قادرًا على أن يرحم، وإلَّا إذا كان حيًّا، فكل اسمٍ من أسماء الله تعالى يلزمه بقية الأسماء، ولكنها تدل عليها بطريق اللزوم.

فكلمة [**مقدِّمةٍ**] هنا انتقلت من كونها صفةً قُدِّمت إلى كونها مصطلحًا اسمًا، اسمها (تاء نقل الصفة إلى الاسمية).

[**وثلاثة فنونٍ**]: سمَّاها فنونًا وليس علومًا ليلفتك إلى ما بينها من التنوع!

وأصل كلمة فنان في لغة العرب، ليس هو الشخص الذي يمثِّل، الفنان عندهم هو الحمار الوحشي المخطَّط، كلمة (فنان) عند العربي -الرجل القديم- لما يقول: (فنان) يقصد الحمار الوحشي.

☼ **طيب لماذا سمَّى العربي القديم الحمار الوحشي بفنان؟**

- قال: لأنه من بين الحيوانات هو الوحيد الذي لا يعدو بطريقةٍ واحدةٍ، وإنما ينوِّع في عَدْوِهِ حتى يكون عصيًّا على الصيد، ولذلك الماهر هو

الذي يصطاد الحمار الوحشي! لأنه لا يمشي عدة أمتار بطريقةٍ إلَّا ويغيِّرها! فأنت عملت حسابك على طريقة معينة، فما أن تطلق السهم إلَّا وتجده قد غيَّر طريقته! أي انتقل من المكان الذي صـــوبت تجاهه، فهذا من عوامل بقائه، فالله أعطاه القدرة على أن ينوِّع طرائق مشيه.

فكلمة: [**وثلاثة فنونٍ**]: يعني ثلاثة علومٍ متنوعةٍ، ليس تنوع تباين، وإنما تنوع تكامل.

☼ ما معنى تنوع تكامل؟

- يعني علم البيان هذا لا يمكن أن يحقق المراد منه إلَّا بناءً على علم المعاني، إذًا التقسيم هنا تقسيمٌ وظيفيٌّ، وليس تقسيم أساليب، يعني لا تقل: التشبيه أسلوب من أساليب البيان، هذا التشبيه يصلُح أن يكون من علم المعاني، ويصلُح أن يكون من علم البيان.

☼ كيف ذلك؟

- أقول: من الجهة التي تنظر إليها، إن نظرتَ إلى جهة التركيب فهو علم معانٍ، وإن نظرتَ إلى جهة الدلالة فهو علم بيانٍ، وهكذا.

ولما أقول: قول الله تعالى:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾[البقرة:171].

هذه الآية من أي علمٍ؟ علم معانٍ أم بيانٍ أم بديعٍ؟

- المنتبه سيقول لي: من العلوم الثلاثة.

- أقول له كيف؟

- يقول: من حيث التركيب هي معانٍ؛ لأن فيها حذف، أليس معنى الكلام: ومثل الذين كفروا ومَن يدعوهم إلى الإيمان كمثل الراعي الذي يرعى الغنم وينعق بها، فأين الداعي؟ محذوف، اسمه حذف تقابُلي، يســـمونه عند البديعيين: احتباك.

☼ **هذا الاحتباك أين يُدرَس؟**

- يُدرَس في علم البديع.

☼ **في علم البديع من حيث التحسين أم من حيث التركيب؟**

من حيث التحســين، أي أن الاحتباك يُدرَس في علم البديع من حيث التحسين.

وأدرس الاحتباك في علم المعاني من حيث التركيب.

وأدرسه في علم البيان من حيث: ﴿**كَمَثَلِ الَّذِي**﴾[البقرة:171].

☼ **هل أنا صنَّفتُ هذه العلوم تصنيفًا أسلوبيًّا؟ أي من حيث أنواع الأساليب؟**

- لا، من حيث جهات النظر، أنت تنظر لوالدك من جهته والدًا والأب، وهو زوج، وهو ولدٌ لرجلٍ آخر، فالجهة التي تنظر فيها تسميه بها، فحينًا هو ولدٌ لرجلٍ آخر، وحينًا هو والدٌ لإنسانٍ آخر، وحينًا هو زوجٌ، وحينًا هو مرؤوس لأناسٍ آخرين، وحينًا هو رئيسٌ، أنت تنظر إليه من جهاتٍ أخر، كلما تغيَّر النظر كلما تغيَّرت الصفة.

ونقول لك أيضًا: علوم البلاغة إنما هي جهاتٌ يُنظر منها إلى الأسلوب، فكل أسلوبٍ في العربية صالحٌ لأن يكون من علم المعاني، ومن علم البيان، ومن علم البديع، ما دام يوجد تحسين.

☼ **ما معنى تحسين؟**

- يعني يجعل المعنى في صدرك حسنًا؛ فهو تحسين للمعاني، فالبديع هذا وظيفته أنه يحسِّن المعنى في صدرك.

فإذا حسُن المعنى في صدرك تمكَّن منه، إذا حسُن المعنى في فؤادك ما الذي يحصل؟ تمكَّن منه، فإذا تمكَّن من قلبك أنس به، قلبك أنس بالمعنى، وأنس المعنى بقلبك، فإذا أنس المعنى بقلبك حرَّكه، فتحوَّل من كونه معلومًا إلى كونه مشهودًا؛ يتحوَّل إلى حركةٍ.

أنا لكي أقرأ آيةً، أو أقرأ شـــيئًا من الآية، تحســـين المعنى معناه أن قلبي ينفتح ويأنس لهذا المعنى، يدخل فيه، ولكن ممكن أن يدخل ويخرج! لا، فأنا يلزم أن أدخِل معناي في صدرك ولا أخرج.

المعنى بعدما يتمكن من فؤادك يبدأ يُحدِث مؤانســـة بينه وبين قلبك، تســتريح للمعنى، وما دمتَ اســترحتَ إليه فالقلب يســتمع إلى المعنى، وإن استمع إليه استجاب.

فلما تقرأ آيةً، وتحس بها في قلبك، وتحوِّلها من مســموعٍ إلى عملٍ، ففي هذه الحالة حسَّـــنَّا المعنى في فؤادك، ثم مكنَّاه فيه، ثم فعَّلناه فيه، فحوَّل من كونه معلومًا إلى كونه معمولًا.

لهذا انظروا إلى الرُمَّاني، تعرفون الرمَّاني؟ هو صـــاحب كتاب النكت في إعجاز القرآن، في دار المعارف في المعرض القادم، يوجد كتابٌ اسمه (ثلاث رسـائل في إعجاز القرآن)، رسـالة للشـيخ الرُمَّاني، ورسـالة للشـيخ الخطَّابي، ورسالة للشيخ عبد القاهر.

رســـالة عبد القاهر ليســـت في البلاغة، هي الشـــافية، هذه رســـالةٌ في العقيدة في كلية أصـــول الدِّين، الرســـالتين اللتان في البلاغة هما (النكت)، (بيان إعجاز القرآن) هما اللتان تتكلَّمان في البلاغة.

إخوانًّا في أصـــول الدِّين يدرســـون (الشـــافية) لعبد القاهر، فهو كتاب عقيدةٍ، وليس كتاب بلاغةٍ؛ ولذلك ليس فيه أي كلام عن البلاغة.

الرُمَّاني رجلٌ معتزليٌّ، والخطَّابي رجلٌ من أهل السُّنَّة، وهو أول مَنْ شرح البخاري وذلك في كتابه (أعلام الحديث).

تعريف البلاغة عند الرُمَّاني: من أعظم ما عُرِّفت به البلاغة، يقول:

"**البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورةٍ من اللفظ**".

☼ متى تكون بليغًا؟

- إذا أوصلتَ معناك إلى القلب، لكن ليس مجرد إيصال؛ لأن الإيصال ممكن أن يتحقَّق بأي شيءٍ، ولو وصل بأي شيءٍ لن يتمكَّن، ولن يأنس؛ فيلزم أن يكون في أحسن –ليس في صورةٍ حسنة– في أحسن صورةٍ من اللفظ.

معناه مثلًا أنك معك خمسة أو ستة صورٍ كلهم حسن، لكن هناك صورةٌ أحسن، فماذا أعمل؟ يقول: أنت مطلوبٌ منك أن تقوم بعملية اختيارٍ بين البدائل، هذا المعنى يمكنك أن توره في خمسة صور، وكلها حسن، لكن فيهم واحدة أحسن، فتكون لديك:

♦ مهارةٌ أن تعرف أولًا ما هو حسنٌ وما هو قبيح حتى تجرِّد القبيح من الصور، وتبقى معك الصور الحسنة.

♦ ولديك مهارةٌ أن تعرف ما بينها من تفاوتٍ، ثم تختار الأحسن.

فهل هذا عملٌ سهلٌ أم صعبٌ؟ يحتاج وقتًا أم لا يحتاج وقتًا؟ هذا كله خدمة لمن؟ للمعنى لكي يصل المعنى إلى القلب.

يقول: إذا المعنى وصل على متن أحسن صورةٍ، ما الذي سيحصل؟ لن يصل فقط بل سيتمكن، ولهذا لم يقل: إيصال المعنى وتمكينه في القلب، لماذا؟ يقول: لأني لست محتاجًا لكلمة التمكين، أقول لك لماذا تمكين؟ لأنه سيُفهم من قول: أحسن صورةٍ، أرأيتَ دقة الرجل؟! هؤلاء الناس عندما يكتبون يزنون الكلام!

[**وثلاثة فنونٍ**]: انتبه! سيبدأ يقول: أن، هو قال لي: الخطيب عمل كذا وسكت؟ هل وصَف الفعل أم علله؟ بدأ يعلل؛ لأن المذكور فيه -في المختصر- إما أن يكون من قبيل المقاصد؛ يعني ما يُقصد إليه لذاته.

أنت ستدخل السوبر ماركت أو المول التجاري لكي تشتري شيئًا معينًا، تشتري صابون، إذًا المقصود إليه لذاته هو ماذا؟ الصابون، فوجدتَ عرضًا على الورق فاشتريته، فهل هذا مقصودٌ إليه لذاته أم لغيره؟ لغيره.

فالمقصود لذاته هو أن تنطلق من حيث أنت إليه مباشرةً، وفي الطريق قد تصادفك أشياءَ، فتقول: أنا لم آتِ لأشتري باكت ورق، سآتي له مرةً أخرى لكي يكون مقصودًا لذاته.

ولذلك الإسلام أباح لي أن أذهب إلى الحج قصدًا لذاته، ومع القصد الذاتي أتاجر، إذًا تجارة مقصودة لذاتها أم لغيرها؟ لو كانت لذاتها أو أحج، يُقبل حجه؟

إذًا المقاصد هو كل ما أنت تقصد إليه قصدًا ذاتيًّا، وهذا لا يمنع أن يكون معه ما هو مقصودٌ لغيره.

يقول لك: عندي أربعة أشياءَ: مقدمة، وثلاثة علوم:

☼ **مَنْ مِن المقدمة الثلاثة علوم مقصودٌ لذاته؟**

- قال: المقصود لذاته العلوم الثلاثة.

☼ **ومَن منهم مقصودٌ لغيره؟**

- قال: المقدمة، فالكلام في الفصاحة والبلاغة ليس مقصودًا لذاته، وإنما مقصودٌ لغيره.

ولذلك انتبه! الخطيب لما جاء ليؤلِف كتابه تكلَّم عن الفصاحة والبلاغة في أول الكتاب، نظر إلى وظيفتها، أنها تهيئ القول في المعاني والبيان، فقال: ما دام أنها تهيئ نقدِّم ما يُهيئ على ما يُهيَّأ، أرأيتَ العقلية؟!

طيب، والخطيب؟ قال: أنا لا أنظر إلى القول بالفصاحة والبلاغة من حيث هي مُهَيِّئة، وإنما أقصد إليها من كونها مقصودةً لغيرها، وما كان مقصودًا لغيره مؤخَّرٌ عمَّا هو مقصودٌ لذاته؛ ولذلك تكلَّم في الفصاحة والبلاغة في آخر الكتاب.

☼ **فنأتي لنسأل الطالب: أيهما الذي أخطأ، الخطيب أم السكَّاكي؟ الخطيب تكلَّم في الفصاحة والبلاغة أولًا، والسكَّاكي تكلَّم فيه في آخر الكتاب، فأي الرجلين أخطأ؟**

- لو قال: السكَّاكي، فإجابته خطأ، لماذا؟ لأنه المفروض أن يقول: اختلفت جهة النظر، فكان كلٌّ مصيبًا إلى ما أراد:

- **الخطيب**: نظر إليه من حيث الوظيفة فقَدَّم.
- **والسكَّاكي**: نظر إليه من حيث علاقته بعلم المعاني والبيان، فكونه علم المعاني والبيان مقصودًا لذاته قدَّمه، وكوْن الفصاحة والبلاغة مقصودًا لغيره فأخَّره.

إذًا لا أتسرع في الحُكم، وأنظر لماذا يفعل الكاتب هذا؟ يجب أن أتعرَّف على غايته.

☼ **لماذا الخطيب لم يتبع شيخه؟**

- قال: أنا وظيفتي -أي الخطيب- أن أكمل ما بدأ السكَّاكي، فالسكَّاكي لَفَتَك إلى العلاقة بين المقصود لذاته والمقصود لغيره، وأنا أكمل لك المسألة، فألفِتك إلى وظيفة المقدِّمة.

☼ **إذًا الخطيب خالف شيخه السكَّاكي، فهل خالفه معاندة؟ أم تخطئة؟ أم تكميلًا؟**

- لم يخالفه معاندة ولا تخطئة، وإنما تكميلًا.

وبالتالي السكَّاكي لما سيقابل -إن شاء الله- الخطيب في الجنة سيُقبِّل رأسه، لماذا؟ سيقول له: لأنك بكتابك أكملتَ ما بدأتُه، لأنه يعرف أنه ما خالفه لينقده، وما خالفه ليهدمه، وإنما خالفه ليتمِّمه.

هذه علاقة العلماء بعضهم ببعض، فلما تعترض على شيخك، لا يكون هدفك الأكبر أن تقول: شيخي لا يفهم، أنا أفضل منه، لا، انقده، ولاحظ أن كلمة (ينقد) لها معنيان، يفسِّر النقد عندنا شيئين:

- **نقد تفسيري:** كل الشروح كتب نقد تفسيري.
- **نقد تقويمي:** أي تقوِّم العِوَج، وتضع القيمة.

إذًا التقويم نوعان، تقويمٌ بمعنى شيءٌ مُعوَجٌ نقِيمه، أو نذكر قيمته، نحكم عليه، الناس تفهم أن معنى النقد هو أن أذكر سلبياتك، يقول لك: لماذا هو ينقدني؟! ينقدك ليبيِّن ما عندك من حسناتٍ، أو ليقوِّم ما عندك من عِوَج، أو ليبيِّن قيمة ما قلتَ.

فمَن يفهم كلمة (نقد)، لا يغضب عندما ينقده أحدٌ، ينظر إلى مقصدية النقد، أنَقَدَك ليوضِّح؟ أنَقَدَك ليقوِّم؟ أنَقَدَك ليقيِّم؟ أي يذكر القيمة؟ فانظر إلى المقصود من النقد.

المذكور في الكتاب إما أن يكون مقصودًا لذاته؛ وهو الثلاثة، وإما مقصودٌ لغيره وهو المقدِّمة.

[**من قبيل المقاصـــد في هذا الفن، أو لا، الثاني: المقدِّمة**]: الذي هو ليس مقصـــودًا لذاته، طيب، لماذا هو كان المفروض أن يبدأ بالمعاني، يقول: فالأول كذا، إنما قال: فالثاني كذا، لماذا؟

لأن الكلام في الثاني قليلٌ، نقوله ونفرغ منه، لكن الكلام في المعاني والبيان والبديع يحتاج إلى بســطٍ، يقول لك: ابدأ بالصــغير، ثم تأتي –بعد ذلك– تفرَّغ للكبير.

وهذا نســتعمله أثناء الاختبار، يقول لك: أجب عن السـؤال الســهل أولًا، والسؤال الذي يحتاج كلامًا ووقتًا أخِّره قليلًا، لماذا؟ لأنك لما تجيب عن السـؤال السـهل، والذي يحتاج وقتًا أقل، وجهدًا أقل، ستعرف أنك تحركتَ واقتربتَ من درجة النجاح، وفي هذه الحالة تطمئن نفســـك، لكن لما تبدأ بالســـؤال الثقيل، وتكون قلقًا من الوقت، لا، أما أن تبدأ بالســـهل فأنت ضمنتَ أربعين في المائة من الإجابة، وباقي لك على النجاح خطوتين، فتبدأ تجيب وأنت مطمئن، لهذا نقول للطلاب: أجيبوا على ما هو أيسـر عليكم، السـهل عليكم، لكي تشـعر نفسـك أنك خرجتَ من عنق الزجاجة، بعد ذلك أنت تتحرَّك في تقدير جيد، وجيد جدًّا، وامتياز، ففي هذه الحالة تكون حالتك النفسية والعقلية مُعينة لك.

فلما كان القول في المقدمة أيســـر قال: [**الثاني: المقدِّمة**]، لم يقل: الأول كذا؛ إذًا هذه بلاغةٌ؛ لأنه داخلٌ في مســـألة التقديم والتأخير، إذًا

أسلوب الكاتب أيضًا هو أيضًا أسلوبٌ بليغٌ، برغم أنه بلاغيٌّ، فلا بد وأن يكون المرء الذي يشتغل بالبلاغة لا بد أن يكون قبل بليغًا.

نحن في كلية البنات نكلِّف البنات أن يدرسوا لغة عبد القاهر، لا أن يدرس المسألة عند عبد القاهر، ادرس استعمال عبد القاهر للمسألة! لا تقل لي: كلام عبد القاهر في (إنما)، الطالبة تشتغل هكذا، عبد القاهر لما كان يستعمل (إنما) كيف كان يستعملها؟

☼ إذًا تتعامل مع عبد القاهر على أساس أنه بلاغيٌّ أم بليغٌ؟

- على أساس أنه بليغ.

عندما تدرس التشبيه، نقول لها: انظري التشبيهات التي صنعها عبد القاهر، أنواع الاستعارات، أنواع التشبيهات، ليس كلامه في الاستعارة، فالكلام العلمي في الاستعارة نحن نعرفه، وأنتِ تعرفينه، أنا أريد أن أرى عبد القاهر لما كان فاهمًا للتشبيه علميًّا هل استطاع أن يطبِّقه؟

فهناك فرق بين إدراكه العقلي للمسألة وإجادته الإبَانية للمسألة، فنجد فروقًا، لماذا؟ لأنه وهو يتكلَّم في البلاغة يتكلَّم بمنطق العقل، فهو أحكم، لكن حين يتكلَّم بليغًا فهو يتكلَّم بحسب موهبته وذوقه، وهذا غير منضبطٍ، ووجدنا كثيرًا من الأشياء التي لم يرتضِها عبد القاهر من حيث هو بلاغيٌّ استعملها هو! لماذا؟ لأنه حين استعملها كان بذوقه، وحين رفضها كان بمنطق عقله، فنقول له: هنا مفارقةٌ بين مقتضى العقل، وبين مقتضى الذوق.

فتعاملوا مع العلماء على أنهم بُلغاءٌ، أدباءٌ، هذا سيمكِّن المادة العلمية عندك، فأنت درستَ باب التقديم في (المطوَّل)، نحن الآن ندرس باب التقديم: تقديم المسند إليه.

يقول لك: حفظتَ أحوال تقديم المسند إليه؟ نعم، وأغراض تقديم المسند إليه؟ نعم، طيب، ارجع للسعد وانظر وهو يقدِّم المسند إليه؛ هل التزم بالأحوال؟ هل التزم بالأغراض؟ أم أضاف -وهو يتكلَّم- أحوال لم يتكلَّم فيها وهو بلاغيٌّ؟ وهل هو جاء به لأغراضٍ لم تُذكَر في الكتاب؟

إذًا عليكَ أن تأخذها وتضيفها، وتقول:

- أحوال تقديم المسند إليه في (المطوَّل) بلاغيًّا: واحد، اثنان، ثلاثة.

- وأحوال تقديم المسند إليه في (المطوَّل) بليغًا: واحد، اثنان، ثلاثة.

إذًا أنت حوَّلت أحوال تقديم المسند إليه من كونها سبعة، جعلتها عشرة، من أين جئت بالثلاثة؟ من كلام السعد، فإذًا أنت خدمتَ العِلم أم لم تخدمه؟ عرفتم كيف تخدمون العلم؟

المسألة التي تفهمها طبِّقها في نفس المكان الذي فهمتَ منه، هذا الرجل استعمل هذا أم لم يستعمله؟ ستُفاجأ أنه أضاف من حيث ذوقه، وليس من حيث عقله؛ لأنه في عقله كان مقلِّدًا لغيره؛ لكنه لما استعمل ذوقه كان فريدًا! فلما كان حرًّا فريدًا انطلق!

وهـذا يعطيـك إفـادةً: لا تكن عبـدًا لغير ربِّـك! يقول الله في ســـورة الإســـراء، وهذه الآية التي ربما ندخل النار –والعياذ بالله- بســـببها؛ لأننا نعصـــاهـا عصـــيـانًـا ممنهجًـا، الله يقول: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء:36]. إيَّاك أن تتبع شـيئًا أنت –ليس لا تعلمه- لك به علم، يعني لا تَقْفُ ما تعلمه من غيرك، وإنما لا بد وأن تَقْفُ ما أنت صانعه، لهذا قال: ﴿لَكَ﴾ ولم يقل: ولا تَقْفُ ما لا تعلم، فهناك فرقٌ كبيرٌ بين: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإســـراء:36]. وبين لا تقف ما لا تعلم، لأنني من الممكن أن أعلم من غيري، يقول لـك: لا تتبعـه، اتبع مـا أنـت تعلمـه بذاتك.

ولـذلـك بعض علمـاء العقيـدة يقول: "التقليـد في الإيمـان مجروحٌ" يعني المؤمن إيمانًا تقليديًّا فإيمانه مجروحٌ، يلزم أن تؤمن أنت من نفسك، بدلائلك، أنت تنظر حتى تنظر فيما يحقق لك من ذاتك الإيمان، في هذه الحالة تأتي شــبهات أهل الأرض على إيمانك فتخر صــرعى تحت إيمانك! لكن الذين يقلِّدون عن غيرهم، فمع أصــغر شــبهةٍ يهتز! فلا بد أنك تنطلق مما تعلم أنت، لا تكن عبدًا لغير الله.

صـــحيح أنا أتعلَّم عن طريق عبد القاهر، أتعلَّم عن طريق البخاري، لكن هذا لا يكفي، أتعلم لكن عليَّ أن أعمل، وأن أفكر، حين تنعتق الأمَّة من باب التقليد ســـتكون حرةً، تنتقل من مقام العبودية لغير الله إلى مقام العبادة والعبودية لله.

سـندخل للمقاصـد، يقول: [**وإن كان الغرض منه الاحتراز**]، ضـع سـهمًا في أعلى الكتاب، على هامش الصـفحة، واكتب ما سـأقوله: (**فإن كان الغرض منه إدراك الأحوال التي بها يُطابِق البيان مقتضـى الحال لتحقيق الاحتراز عن الخطأ في تأدية المراد**) هذا فك الكلام.

إذًا الغرض ليس الاحـتراز، لا، الاحـتراز هذا لازمٌ للغرض، فالرجل -الشيخ السعد- ماذا فعل؟ عبَّر باللازم عن الملزوم.

☼ لماذا لم يذكر الملزوم؟

- اقتصـادًا في العبارة؛ لأنه قال لك: لن تفهم اللازم إلَّا إذا فهمتَ الملزوم، فكأن الملزوم حاضرٌ في عقلك، فما دام حاضرًا في عقلك، إذًا أنا في علم البلاغة أتعلَّم ليس لأن أحترف، يقول لي: أنت تتعلَّم لكي تدرك الأحوال التي يطابِق بها كلامك مقتضـى الحال، فإذا علِمتَ ذلك أثمر لك الاحتراز.

إذًا علم المعاني ليس علمًا احترازيًّا، ما جاء لنحترز به، جاء لتؤسـس شـيئًا عندك، إن تحقَّق هذا الاحتراز، إن تحقَّق هذا الشـيء، كان لك منه الاحتراز.

إذًا لتحترز هذه لازم حُذِف ملزومه، وحُذِف ملزومه لأنه معلومٌ من السياق، أو الشأن فيه أن يكون معلومًا.

إذًا نحن نتعلَّم علم المعاني، ندرك الأشياء التي بها بيانُك يطابق مقتضى الحال.

تعرف أن مقتضى حال هذا الإنسان أن تؤكِّد له الكلام، إذًا يلزم أن تعرف ما الحالة التي يكون فيها تأكيد الكلام؟

☼ متى تؤكد كلامك؟

- إذا لم تعرف متى تؤكد كلامك فقد تؤكد الكلام لغير مَنْ يحتاج إليه، وكثيرًا ما تُكَلِّم واحدًا وتحلف له، يقول لك: لماذا تحلف؟ أنا أصدِّقك، أليس كذلك؟

يقول لك: أنت أخطأتَ في أنك لم تدرك الأحوال التي تلائمني، أنت متصوِّر أني لن أصدقك فحلفتَ لي.

نقول له: لا، انتبه! عُظم الذين اتخذوا القَسم بالله، لا لأنهم يشكُّون أنك مُنْكِر، ولكنهم لأنهم على يقينٍ أن الذي يقولونه لك إنما هو كذبٌ محضٌ، فيُقسم لك ليؤكد لنفسه أولًا –لا لك– فأنت لا تعنيه في شيءٍ، فإذا رأيتَ رجلًا يُكثر الحلف فانفض يدك منه! لأنه واثقٌ في داخله أنه كذوبٌ! فهو لا يحلف، لا يؤكِّد مطابقة لمقتضى حالك أنت، وإنما لمقتضى حاله هو، وهذا شأن المنافقين، يحلِف من غير أن يُستحلَف، وشأن المسلم ألَّا يحلِف إلَّا إذا استُحلِف، فمن أكثر الحلف بغير استحلافٍ فإنما أنبأك عن حاله، أشققتَ عن صدره؟ نعم، شقَّ عنه لسانه!

والله أعلى وأعلم، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد ألَّا إله إلَّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، والحمد لله رب العالمين.

****